أسطورة ياسر عرفات

معين الطاهر*

# ياسر عرفات: الانشقاق ومعركة طرابلس

كانت أثينا هي المرفأ الذي اختاره ياسر عرفات بعد مغادرته بيروت... استقبلت أثينا أبو عمار كما استقبلت قبله بيوم جرحى الحرب، لأن الجرح الفلسطيني لم يجد له بلسماً شافياً في أي من عواصم العرب.

لم تنته القصة هنا، كما أنها لم تبدأ من هنا، فالخلاف السوري ـ الفلسطيني بدا واضحاً للعيان منذ ما بعد حرب تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٣، وسعي العرب للحاق بقطار التسوية المرتقبة، ومحاولة ياسر عرفات الحفاظ على مقعد للفلسطينيين فيها.

وكثيراً ما كانت العلاقة الفلسطينية ـ السورية بين مد وجزر. فقد وجدت الثورة الفلسطينية في البدايات احتضاناً لها في سورية، وفي بداية الحرب الأهلية اللبنانية (حرب السنتين ـ ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) تحالفت المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية مع سورية، لكن هذا التحالف تحوّل في مرحلة متقدمة من تلك الحرب الأهلية، إلى خصومة واقتتال عبر مواجهات ضارية في المتن وبحمدون وشرقي صيدا، وسادت العلاقة أجواء من التوتر والحذر وعدم الثقة التي تعززت خلال حرب ١٩٨٢ وحصار بيروت. والمفارقة هنا أن أبطال الانشقاق في "فتح" كانوا من دعاة التصدي للقوات السورية في لبنان في مرحلة سابقة.

## تمهيد للانشقاق

كان نظام حافظ الأسد يسعى جاهداً للإمساك بأوراق اللعبة السياسية في المنطقة، وفي مقدمها الورقة الفلسطينية، بينما كان أبو عمار يسعى جاهداً للإفلات من القبضة السورية والمحافظة على استقلال القرار الفلسطيني، وكان لبنان الساحة المتنازع عليها.

وتجلى الخلاف واضحاً بين الفريقين في قمة فاس (٦ / ٩ / ١٩٨٢)، إذ تخلف

* قائد كتيبة الجرمق سابقاً.

الرئيس الأسد عن الاستقبال الجماعي الذي نظمه الملوك والرؤساء العرب للزعيم الفلسطيني في المطار. وكان الأسد هو الزعيم الوحيد الذي لم يلتق بعرفات خلال عقد القمة العربية.

احتج السيد نمر صالح (أبو صالح) عضو اللجنة المركزية لحركة "فتح" على قرارات القمة، وأصدر مع أبو ماهر اليماني (الجبهة الشعبية) وطلال ناجي (القيادة العامة) تصريحاً صحافياً ضدها، وغادروا فاس في طائرة الرئيس السوري المتجهة الى دمشق. وكان أبو صالح قد اجتمع بالرئيس السوري ٧ ساعات في دمشق قبل القمة.

في السابع والعشرين من الشهر نفسه اغتيل الشهيد سعد صايل (أبو الوليد) مدير العمليات المركزية وبطل معركة بيروت، بإطلاق النار على موكبه في سهل البقاع، بالقرب من أحد الحواجز السورية. وكان اغتيال أبو الوليد، الذي كان يحظى باحترام ومحبة وثقة الكادر العسكري والسياسي، المقدمة "الضرورية" للعبث بجسم قوات العاصفة.

ومن المقدمات التي أشارت أيضا إلى استهداف النظام السوري لأبو عمّار، ما حدث خلال الاحتفالات بذكرى انطلاقة الثورة، والتي عُقد في سياقها دورة للمجلس الثوري في عدن. فقد نُظّم في المناسبة أيضاً احتفالات فنية وعرض لوحدات عسكرية فلسطينية استدعيت من صنعاء والسودان وتونس واليمن والعراق، لكن المعارضة الفلسطينية ووسائل الإعلام السورية تناولت هذه الاحتفالات بانتقادات شديدة، غير أن الحدث الأبرز كان في تقديم العقيد أبو موسى مذكرة للمجلس الثوري تضمنت اتهامات قاسية للقيادة، ومطالبة بعقد مؤتمر لحركة "فتح" في مدة لا تتعدى الأسبوعين، وتم توزيع المذكرة بكثافة على وسائل الإعلام وفي صفوف القوات في سورية ولبنان خلال انعقاد المجلس. وشكلت هذه المذكرة بداية إعلان واضح لما عُرف لاحقاً باسم "التيار الوطني الديمقراطي في فتح"، الذي واصل لقاءاته بهذه الصفة مع فصائل المعارضة الفلسطينية، واجتمع بالعقيد القذافي الذي وعد بتمويل حركة الانشقاق بمبلغ ٦ ملايين دولار شهرياً بترتيب من أحمد جبريل. وجرى في إثر ذلك إنشاء غرفة عمليات مشتركة مع الصاعقة و"القيادة العامة" وجبهة النضال الشعبي.

وفيما بعد، تفاخر أبو صالح، الذي اعتبر نفسه الحليف الرئيسي لسورية، بأنه أمضى ١٨ ساعة من المحادثات مع الرئيس السوري في الأسابيع التي سبقت إعلان الانشقاق، تُوّجت بلقاء مع الأسد تحدثت عنه وسائل الإعلام بإسهاب في بداية أيار / مايو ١٩٨٣.

وردت اللجنة المركزية لحركة "فتح" بتجميد عضوية كل من أبو صالح وقدري من اللجنة المركزية، وأصدر أبو عمار مجموعة من القرارات العسكرية تضمنت نقل العقيد أبو موسى وأبو خالد العملة إلى مقر القيادة في تونس، وتعيين بعض الضباط الذين أثير جدل واسع بشأن أدائهم خلال حرب ١٩٨٢، في مواقع قيادة القوات. كما جرى تطعيم هذه القرارات بترفيع بعض الكوادر العسكرية من أبناء العاصفة، وتعيينهم كنواب لقادة القوات الثلاثة التي أعيد تشكيلها في لبنان، إلاّ إن المؤسف أن هؤلاء الإخوة ما لبثوا أن غادروا، كأفراد، مواقعهم، وانضموا إلى الانشقاق بضعة أيام أو أسابيع قبل أن يغادروه مجدداً.

ومن الواضح أن عبئاً ثقيلاً أُلقي على عاتق أبو عمار وأبو جهاد بعد اغتيال الشهيد أبو الوليد الذي كان يقوم بعملية إعادة تنظيم القوات الفلسطينية في لبنان. وأدى هذا الفراغ إلى إرباك في وضع قوات "فتح"، وإلى إثارة العديد من الأسئلة المشروعة بشأن مستقبل النضال الفلسطيني بعد الخروج من بيروت، لكن المبادرات التي قامت بها بعض الوحدات،

مثل مجموعات القطاع الغربي وكتيبة الجرمق، التي أعادت بسرعة تنظيم صفوفها والتوجه إلى القتال خلف خطوط العدو الصهيوني، ونجحت في أسر ثمانية من جنود العدو، عوّضت هذا الجانب بشكل جزئي.

لم تكن القرارات التي اتخذها ياسر عرفات كافية لمواجهة الانشقاق، فهي اعتمدت بالدرجة الأولى على معايير الولاء والطاعة التي لم تكن، على أهميتها، لتنجح في مواجهة حالة انشقاق جديّة مدعومة من دولتين عربيتين (سورية وليبيا)، وتغلف نفسها بشعارات الإصلاح الداخلي ومحاربة الفساد ومناهضة التسويات المطروحة والدعوة إلى عودة القوات التي خرجت من بيروت إلى الساحة اللبنانية مجدداً. لذا سرعان ما اضطر أبو عمار أمام تطور الأحداث إلى إلغاء معظمها، كما اضطر بالتدريج إلى الاعتراف بوجود الانشقاق، ومواجهته بقوة وصلابة بعد أن كان يتحدث عن تمرد لبضع عناصر يجري احتواؤه.

على الصعيد الميداني، سيطر العقيد أبو موسى في ٩ / ٥ / ١٩٨٣ على كتيبتين من قوات اليرموك من أصل ثلاثة، بعدما سلمته المخابرات السورية ٦٠ طناً من الأسلحة المصادرة من مستودعات "فتح"، كما انضم إلى حركة التمرد وحدات من جيش التحرير في منطقة الروضة في البقاع. وترافق ذلك مع إصدار بيان يتهم قيادة "فتح" بتسهيل التسوية الأميركية، وتمزيق وحدة الحركة، ويدعو إلى التحالف مع سورية، وإلى إلغاء قرارات النقل والتعيينات التي شملت "المنحرفين والمهزومين"، والمطالبة بتسريحهم وتحويلهم إلى المحاكمة. كما طالب البيان بعقد مؤتمر للحركة مع إعطاء قادة الانشقاق الحق في تعيين نصف أعضائه، وتعيين قيادة موقتة لحين عقد المؤتمر يكون فيها العقيد أبو موسى نائباً للقائد العام.

## إفشال مساعي الاحتواء

تداعت كوادر عديدة من "فتح" في محاولة لتطويق الموقف والحيلولة دون الاقتتال الداخلي، من أبرزها عباس زكي وأبو العبد العكلوك وجميل شحادة ومروان كيالي وأبو إبراهيم عبود، وأجرت تلك المجموعة سلسلة حوارات لكن من دون نتيجة، إذ استمر التمرد في التوسع على الأرض واكتساب مواقع جديدة، على الرغم من الموافقة على عقد المؤتمر العام وإلغاء القرارات الأخيرة. وفي الوقت ذاته أعلن القذافي دعمه للتمرد، بينما صرّح عبد الحليم خدام، وزير الخارجية السوري في حينه والمسؤول عن الملفَّين الفلسطيني واللبناني، في لقاء مباشر مع خليل الوزير، أنه "إذا كنتم ترغبون في حل مشاكلكم فيجب أن تتقيدوا بسياساتنا، تصادقون أصدقاءنا وتعادون أعداءنا."

في ظل هذه الأوضاع قام أبو عمار بزيارة لسهل البقاع التقى فيها القوات الموجودة هناك، وهي الزيارة الأولى له منذ الخروج من بيروت. ولعل في هذا إشارة كافية إلى بعض ما كانت تعانيه هذه القوات من فراغ هائل على مستوى القيادة العليا. وعاد ياسر عرفات إلى دمشق لحضور اجتماع طارئ للمجلس الثوري فيها، ومنها توجه إلى طرابلس من طريق حمص، وفي الطريق غيّر المسار وسلك مع قسم من الموكب طريق الهرمل، بينما واصل الجزء الآخر من الموكب السير على الطريق الأصلية، حيث تعرض لإطلاق نار من كمين أدى الى مقتل أحد العناصر وإصابة ٩ بجروح. واتهمت وسائل الإعلام الفلسطينية النظام السوري

بالوقوف وراء هذا الحادث.

عند وصوله إلى طرابلس تلقّى ياسر عرفات اتصالاً من رفعت الأسد، شقيق الرئيس السوري، دعاه فيه إلى العودة إلى دمشق حيث سيتم ترتيب لقاء له مع الرئيس الأسد، فعاد إلى دمشق، لكن بعد اجتماعه برفعت الأسد بقليل صدر قرار بطرده من سورية، واعتبار خليل الوزير (أبو جهاد) شخصاً غير مرغوب فيه. غادر أبو عمار سورية على متن رحلة عادية من رحلات الطيران التونسي كأي راكب عادي مع ما يحمله ذلك من مخاطر، ومع طرده من دمشق في ٢٤ / ٥ / ١٩٨٣، تكرست حالة الانشقاق التي عُرفت باسم "فتح الانتفاضة"، ودخل الوضع الفلسطيني في مرحلة من الاقتتال الداخلي.

في إثر ذلك، اشتعلت جبهة البقاع وسيطرت "فتح الانتفاضة" على مقر قيادة قوات اليرموك في مجدل عنجر، وتم حصار تلك القوات في منطقة رياق وسط لواء من المدرعات السورية، بينما تمكنت قوات "فتح" في منطقة شتورا ـ تعلبايا من وقف أي تمدد للمنشقين. وأعيد تنظيم قوات "فتح" في تلك المنطقة تحسباً من أي اختراقات، وتم توزيع تلك القوات على المحاور المتعددة ضمن تشكيلات جديدة أدت فيها كتيبة الجرمق دور النواة الصلبة للقوات، كما اتحدت مجموعة من الكوادر القيادية العسكرية المتميزة من مختلف الوحدات بقيادة الأخ زياد الأطرش. وحافظت هذه القوات على مواقعها المتقدمة في الجبل وزادت وتيرة عملياتها ضد العدو الصهيوني خلف الخطوط، على الرغم من حالة الانشقاق التي كانت سائدة. والمحاولة الأخيرة لتمدد قوات الانشقاق كانت من خلال تسلل مجموعات منها عبر الخطوط السورية إلى بلدة جديتا لحصار قوات "فتح" وإغلاق طريق البقاع ـ الجبل، لكن قوات "فتح" تمكنت من صد الهجوم وأسر أكثر من سبعين من القوات المهاجمة، بينهم قائدهم الضابط أبو الحكم. وقد تمت معاملتهم كرفاق سلاح وأعيدوا إلى مواقعهم بأسلحتهم من طريق الجبهة الديمقراطية. وبعد ذلك لم يعد هنالك أي إمكان للتقدم في اتجاه قوات "فتح" في هذا المحور، وانتهت قدرة الانشقاق العسكرية.

## الانسحاب الإسرائيلي

هدأ القتال نسبياً، وتدخّل عدد من الوسطاء لمنع تجدده ولتطويقه، ومن أبرز الذين توسطوا كان ممدوح نوفل وأبو أحمد فؤاد ـ القائدان العسكريان للجبهتين الديمقراطية والشعبية. وتم عقد عدة لقاءات حضرها عن المنشقين أبو موسى وأبو خالد العملة، وعن حركة "فتح" أبو إبراهيم عبود ومعين الطاهر ومروان كيالي. وفي أحد اللقاءات اقترح وفد "فتح" على المنشقين إصدار بيان يعلن انتهاء الاقتتال الفلسطيني وتفرّغ قوات العاصفة لقتال العدو الصهيوني، مع تشكيل كتيبة مشتركة من الطرفين تكون هذه مهمتها الأساسية، وأن يكون هذا هو المعيار لأي تحركات مقبلة، مع التمسك المشترك بالإصلاح وعقد المؤتمر الحركي. لكن اللقاءات توقفت، كما توقف القتال، لعدم قدرة المنشقين على إقناع مقاتليهم بمهاجمة قوات "فتح" التي، وعلى الرغم من تضعضع معنويات قوات الانشقاق، لم تقم بأي مبادرة هجومية، وإنما اكتفت بالدفاع عن النفس وبمواصلة العمليات ضد الجيش الاسرائيلي، الأمر الذي أوقع المنشقين في حرج شديد.

جاء التطور الأبرز في إعلان الجيش الإسرائيلي نيّته الانسحاب من الجبل والشوف، فشكلت "فتح الانتفاضة" قوة مشتركة مع حلفائها، وكتبت على سياراتها "قوات العودة إلى بيروت"، بينما شكلت "فتح" مع الجبهتين الشعبية والديمقراطية وجبهة التحرير الفلسطينية قوة موحدة اندفعت من مواقع "فتح" في المتن وصوفر إلى عاليه وبيصور وقبرشمون حيث صدت بالتعاون مع قوات الحزب التقدمي الاشتراكي الهجوم المعاكس الذي شنه اللواء الرابع في الجيش اللبناني. وكانت هذه المجموعات قد وصلت إلى حي السلم وأطراف برج البراجنة، وبدأت المدمرة نيوجيرسي بقصف مواقع القوات المشتركة، فأحضرت "فتح" أعداداً كبيرة من المقاتلين من البقاع إلى الجبل، وعمدت إلى إخراج قوات اليرموك المحاصرة إلى المنطقة التي تسيطر عليها قوات "فتح" عبر جسر أقامه القائد علي أبو طوق من مواسير الصرف الصحي. وكانت الخطة هي مغادرة البقاع ومناطق انتشار الجيش السوري كلياً والانتشار في الجبل ومخيمات بيروت والانطلاق نحو الجنوب. ووجدنا في ذلك فرصة ذهبية للخروج من مستنقع الاقتتال الفلسطيني، ومن دائرة النفوذ السوري، وللتوجه إلى قتال العدو الصهيوني.

## معركة طرابلس وتعقيداتها

علم أبو عمار أن القوات أصبحت على مشارف بيروت، وأدرك أن ثمة متغيرات كبيرة تحدث في الساحة اللبنانية، وفوجئنا به يصل إلى طرابلس. ومَن يعرف أبو عمار يدرك أنه لا يمكن إلاّ أن يكون هناك. وقد وصل إلى طرابلس على ظهر زورق متنكراً بلباس عالم دين جزائري.

إن عجز تحالف الانشقاق عن التقدم في اتجاه مواقع "فتح"، ووصول أبو عمار إلى طرابلس، وتقدّم مجموعات "فتح" إلى أطراف بيروت ومشاركتها الفاعلة في معارك الجبل، وإخراج قوات اليرموك من دائرة الحصار، ومحاولة تسلل معظم القوات في اتجاه الجبل وبيروت والجنوب، والتدخل الأميركي في المعركة، عوامل دفعت بالرئيس السوري إلى إصدار تعليماته الحازمة بالتدخل السوري المباشر، إذ كان لا بد من إنهاء ما كان النظام السوري يطلق عليه تسمية "زمرة عرفات" قبل أن تتمكن من إحداث متغيرات غير مرغوب فيها وتمس السياسة السورية في لبنان، على أن هذا لا يمكن تحقيقه من دون التدخل المباشر للمدرعات السورية. وهكذا، حاصرت الدبابات السورية مواقع "فتح" في البقاع، وقطعت جميع الطرق المؤدية الى الجبل، وصار الـ "آر بي جي" الفلسطيني في مواجهة الدبابة السورية. وكان غازي كنعان قد احتجز القائدين نصر يوسف ومروان كيالي وآخرين ممّن ذهبوا للقائه، فرفضت قيادة قوات "فتح" القيام بأي خطوة قبل إطلاقهم، وامتلأت الشوارع بالمتاريس وأكوام الرمل، فتم الإفراج عنهم جميعاً. واجتمعت القيادة الميدانية وقررت بالإجماع الانسحاب من البقاع والتوجه إلى طرابلس، تلافياً لاشتباك غير مرغوب فيه مع الجيش السوري، وتجنباً لمذبحة كبرى في منطقة لا يتجاوز طولها ٦ كيلومترات ما بين تعلبايا وسعدنايل.

غادرت قوات "فتح" في اليوم التالي البقاع وسط احتفال كبير من أهالي المنطقة الذين نثروا الورود والأرزّ على جانبي الطريق، وحاولت القوات السورية مرتين وقف تلك القوات وتجريدها من أسلحتها، لكن ذلك لم ينجح، بسبب إرادة المقاتلين وتصميمهم على الحفاظ

على أسلحتهم ومواصلة طريقهم.

على أبواب الهرمل وجدت قوات "فتح" المنسحبة في اتجاه الشمال بعض الإخوة في انتظارها يتقدمهم الأخ طراد حمادة، وقالوا إن السوريين يخططون لاحتجاز القوات المنسحبة في منطقة تدعى جباب الحمر. كان عديد تلك القوات نحو ١٢٠٠ مقاتل انتشروا على التلال، إلى أن قام شباب الهرمل بشق طريق وتمهيدها لاستيعاب آليات قوات "فتح" بشكل يسمح لها بإكمال طريقها إلى طرابلس. وفي موازاة ذلك، توجهت العشائر إلى الرئيس الأسد لتدارك أي تداعيات. وفي اليوم الثاني لوجود قوات "فتح" في الهرمل دعتنا العشائر إلى غداء على نهر العاصي بحضور غازي كنعان، وكان سؤاله الرئيسي لنا بعد أن رأى وداع الجماهير في البقاع واستقبال أهل الهرمل لنا: لماذا يحبكم الناس؟

نقلت إذاعة مونتي كارلو عن مسؤول سوري أن أبو عمار شوهد في جزيرة قبرص، وأنه ربما يكون في طريقه الآن إلى طرابلس، وقد أثار هذا الخبر رعب الإخوة في طرابلس، فهو ليس أقل من دعوة إلى البحرية الإسرائيلية لاعتراض زورقه. واتصل أحمد عبد الرحمن بنبيل درويش مذيع الأخبار في مونتي كارلو ورجاه عدم تكرار الخبر في النشرات اللاحقة، بينما حرّك الأخ أبو جهاد عشرات الزوارق على خط طرابلس قبرص في محاولة لتضليل البحرية الإسرائيلية أو إعاقتها. وفجأة ظهر أبو عمار في مخيم البداوي، متنكراً بزي عالم دين، إذ اعتاد الجزائريون طلب العلم من المعاهد الدينية في المدينة التي أصبحت تحت سيطرة حركة التوحيد الاسلامي بزعامة الشيخ سعيد شعبان.

تشكلت حركة التوحيد من ائتلاف ثلاث قوى رئيسية يتزعمها خليل عكاوي، وناجي كنعان، والدكتور عصمت مراد الماركسي اللينيني الذي قاتل مع "فتح" وأسس حركة لبنان العربي قبل أن يعتنق التوجه الإسلامي ويساهم في تأسيس حركة التوحيد. وأغلبية مجموعات التوحيد كان لها علاقات سابقة مع المقاومة وقاتلت معها في معظم معاركها، لكن فضلاً عن هذه المجموعات كان هنالك العشرات من المجموعات الصغيرة ذات الاتجاه السلفي أو الصوفي والمرتبطة بمشايخ أو زعامات في الأحياء. ولم تكن الحركة قد انصهرت بعد في بوتقة واحدة بقدر ما كان يجمعها مبايعة الشيخ سعيد شعبان أميراً لها، وتأييد شعبي كبير مترافق مع المد الإسلامي الذي ساد في تلك الحقبة.

كان الإسلاميون حليفاً جديداً لياسر عرفات بمواصفات مختلفة عن تلك التي تعوّد عليها في مقر قيادته في بيروت مع فصائل الحركة الوطنية اللبنانية. فالمفاهيم والمصطلحات والأفكار والآراء كانت مختلفة تماماً عن تلك المتداولة في صفوف منظمة التحرير وفصائلها، لكنها ربما كانت تذكّر ياسر عرفات بأيام صباه يوم كان عضواً في حركة الإخوان المسلمين، أو نصيراً مقرباً منها.

في سياق هذا التحالف الجديد كان التحدي الأول في ١٢ تشرين الأول / أكتوبر حين اشتبكت مجموعات متعددة من التوحيد مع الحزب الشيوعي اللبناني وحاصرت مكاتبه في طرابلس، فبقي أبو عمار ساعات طويلة مع الشيخ سعيد شعبان يحاول وقف القتال وإخراج المحاصرين سالمين من مكاتبهم، لكن من دون جدوى. وفي النهاية تقرر أن أذهب مع الشيخ سعيد شعبان والأخ أبو الهول والأخ منذر أبو غزالة والدكتور عصمت وآخرين إلى الأزقة المحيطة بمواقع الاشتباك لمحاولة وقفه. حاول الشيخ سعيد والأخ أبو الهول أن يشرحا

لقادة المجموعات أهمية وقف إطلاق النار والسماح للمحاصرين بالمغادرة، لكن صوت التطرف كان أعلى. غير أن أحد الإخوة أنقذ الموقف حين استغل تطاول أحد الحاضرين على الشيخ فنهره، وذكّرهم أنهم بايعوا الشيخ على المنشط والمكره، ولا يجوز لهم شرعاً رفض أوامره إلاّ إذا تخلوا عن البيعة، مطالباً إياهم بالطاعة والاستغفار. فتراجع قادة المجموعات فوراً، وتوقف إطلاق النار، وتم إنقاذ المحاصرين وإجلاؤهم إلى خارج طرابلس. إلاّ إن حملة إعلامية ضخمة اتهمت أبو عمار بالتواطؤ على قتل الشيوعيين في طرابلس.

تحولت طرابلس إلى ورشة عمل لا تهدأ، ووصل إليها عبر البحر مئات المقاتلين الذين تمكنت الزوارق الإسرائيلية من اعتراض بعضهم، ومصادرة بعض الأسلحة والذخائر.

وفي المقابل، أخذت سورية على عاتقها قيادة المعركة، فلم تتركها لحلفائها، وتم حشد لواءين سوريين من القوات الخاصة، و٤٠٠٠ مقاتل من جيش التحرير، و٥٠٠ مقاتل من "فتح الانتفاضة" وما يوازيهم من الصاعقة والقيادة العامة. ووُضع الجميع بإمرة غرفة عمليات مشتركة ترأسها قائد القوات السورية في شمال لبنان سليمان العيسى، وضمّت غازي كنعان وطارق الخضرا وأحمد جبريل وأبو موسى وصلاح المعاني من الصاعقة.

في ١٧ تشرين الأول / أكتوبر، أعلن طارق الخضرا قائد جيش التحرير الفلسطيني في سورية من على شاشة التلفزيون السوري ما يشبه البيان رقم واحد ضد ياسر عرفات، وطالب بعزله ومحاكمته.

في ٢ تشرين الثاني / نوفمبر، بدأ الهجوم المنسق الكبير على طول خط الجبهة من نهر البارد حتى البداوي وطرابلس بقصف مدفعي وصاروخي عنيف، وذكّرني القصف الشديد الذي تعرضت له طرابلس والمخيمات بالقصف الذي تعرضت له بيروت خلال حصار ١٩٨٢. ومنذ اللحظات الأولى فرّ مئات المقاتلين من جيش التحرير والتحقوا بقوات عرفات، وكان بعضهم قد سرب خطة الهجوم كاملة قبل ذلك بساعات، ومنهم قائد إحدى الكتائب الذي سبق أن تولى قيادة محور المتحف في بيروت وصدّ الهجوم الصهيوني المعادي. لقد دفع هذا الضابط حياته في السجون السورية ثمناً لموقفه الوطني هذا.

بعد أسبوع من القتال تراجع الموالون لعرفات إلى مخيم البداوي ومدينة طرابلس. وفي ١٥ تشرين الثاني / نوفمبر، بدأ هجوم جديد شاركت فيه القوات الخاصة السورية، وتركز على مخيم البداوي وحي القبة في طرابلس، واستمر ثلاثة أيام تراجعت بعده قوات عرفات إلى طرابلس التي قُطعت عنها المياه والكهرباء، وتم تدمير ٣ سفن في مينائها جرّاء القصف السوري.

دفع أبو عمار بكل قواته إلى المعركة وأشرف عليها بشكل مباشر، وكان دائم الحضور على الخطوط الأمامية، حتى إنه أرسل مرافقيه الشخصيين إلى القتال في أصعب النقاط، ووضع قيادات الصف الأول في المواقع الأمامية.

بوساطة عربية تم الوصول إلى وقف لإطلاق النار، لكن النظام السوري كان مصمماً هذه المرة على عدم السماح لعرفات بالإفلات، فنُقلت كتيبتان من قوات القادسية في ٢٠ تشرين الثاني / نوفمبر من جبهة الجولان إلى طرابلس استعداداً للهجوم النهائي عليها.

وعلى الرغم من احتدام حدة المعارك والقصف المتواصل على المدينة، فإن ياسر عرفات تمكن في ٢٤ تشرين الثاني / نوفمبر من إنجاز صفقة تبادل عن طريق الصليب الأحمر،

تم فيها إطلاق ٥٩٠٠ أسير لبناني وفلسطيني من معسكر أنصار، وعدد من الأسرى داخل السجون الإسرائيلية. وأربكت هذ الصفقه الموقف السوري، فتوقف الهجوم النهائي على المدينة، والذي كان مقرراً في ٢٥ تشرين الثاني / نوفمبر، إذ لم تعد الأوضاع السياسية ملائمة بعد الصمود في طرابلس وإنجاز صفقة التبادل والتدخلات العربية والدولية.

في ٦ كانون الأول / ديسمبر، نُفّذت عملية جريئة استهدفت حافلة إسرائيلية في القدس المحتلة، وأسفرت عن مقتل ٤ صهيونيين وإصابة ٤٦ بجروح. وعلى الرغم من أنه لم يتم الكشف عن هوية المنفذين إلاّ بعد أعوام، وكانوا من "فتح" ومن المجموعات التي تلقت تدريبها في الكتيبة الطلابية، فإن إسرائيل أدركت أن هذه العملية لا تخرج عن نطاق "فتح"، فقامت بقصف جوي ومن السفن على بعض المواقع في طرابلس.

أخيراً وافق أبو عمار على الجلاء عن طرابلس بعد الحصول على تطمينات عربية وضمانات أميركية قُدمت إلى السعودية، وعلى مواكبة بحرية فرنسية. وفي ١٧ كانون الأول / ديسمبر غادر ٤٧٠ جريحاً على متن باخرة مستشفى، ورافقهم الجرّاح اليوناني / الفلسطيني الدكتور يانو الذي ما لبث أن عاد الى مخيم شاتيلا. وفي ٢٠ من الشهر نفسه، أبحر ٤٧٠٠ مقاتل على متن بواخر متجهة إلى اليمن والسودان والجزائر.

قبل مغادرة طرابلس كان هنالك ورشة عمل كبرى تتمثل في نقل ما يمكن نقله من السلاح والذخيرة إلى بيروت والجبل والجنوب عبر عشرات القنوات ووسائل التهريب المتعددة، كأن أبو عمار، وبجهد أساسي من علي أبو طوق ومساعدة بعض الفصائل الفلسطينية واللبنانية، يعدّ العدة للعودة مرة أُخرى عبر نافذة جديدة.

واللافت في موضوع الخروج أن أبو عمار اختار أن يذهب في الباخرة المسافرة إلى اليمن. وبعد الاجتماع الذي تقرر فيه توزيع المقاتلين على البواخر، همست في أذن الأخ أبو جهاد قائلاً: "صاحبك سيلتقي الرئيس مبارك." واعتقد أبو جهاد أن لديّ معلومات عن ذلك، لكنني أوضحت له أنه لا يعقل أن يكون اختيار أبو عمار المرور في قناة السويس في طريقه إلى اليمن من دون أن يكون هنالك ترتيب ما للقاء الرئيس المصري حسني مبارك، وأنه إذا لم يكن يريد ذلك فإن عليه أن يستقل الباخرة الذاهبة إلى تونس. وعد أبو جهاد أن يستفسر عن ذلك، وعاد ليخبرني أن هواجسي لا محل لها. لم أقتنع بطبيعة الحال، ولا أعرف ما إذا كان الأخ أبو جهاد تحفّظ عن البوح بما قد يُعتبر سراً من الأسرار لكن أبو عمار كان يدرك أن عليه، بعد طرابلس وربما قبلها، أن يعيد ترتيب علاقاته العربية، وخصوصا أنه يقول عن نفسه دوماً أنه مصري الهوى، وأنه يؤمن بأن عودة مصر إلى الصف العربي قوة كبيرة تضاف إلى رصيده.

## خاتمة لا بد منها

بعد طردنا من البقاع بيومين، طلبت القوات السورية من جميع الفصائل الفلسطينية الموجودة في الجبل والمتن الانسحاب والإبقاء على قوة رمزية لا تتجاوز ٢٠٠ مقاتل للفصائل كافة، بينما توجهت "قوات العودة" التي شكلها المنشقون إلى طرابلس لاستكمال مهماتها هناك. وبعد الخروج من طرابلس أوقف الأخ أبو صالح في المصنع على الحدود

اللبنانية ـ السورية في إثر عودته من لبنان، وإدلائه بتصريح يعلن فيه عودة المقاومة الفلسطينية إلى بيروت. وطُلب من أبو صالح التزام بيته في دمشق، وفُرضت علية الإقامة الجبرية حتى وفاته. وعادت أغلبية الكوادر التي شاركت في الانشقاق إلى صفوف حركة "فتح"، أو التزمت منازلها، وتم إجهاض حركة إصلاح حقيقية في صفوف "فتح"، ولم يُسمح لأي من الفصائل الفلسطينية بأي وجود ذي مغزى في لبنان، بل لم يسمح لها حتى بالمشاركة في نشاطات المقاومة ضد الاحتلال الصهيوني للجنوب اللبناني، وتمت محاربة القوات التي عادت الى لبنان بعد معركة طرابلس بضراوة شديدة فيما عرف بحرب المخيمات، ونجح النظام السوري في رسم الوضع اللبناني والوجود الفلسطيني فيه وفق سياساته. وهكذا، أنهت حرب طرابلس الجُمل الثورية الكبيرة التي تستّر وراءها دعاة الانشقاق والاقتتال، وبذلك شكل انسحاب ياسر عرفات من طرابلس هزيمة كبرى لمنافسيه. ■

## المراجع

**اعتمدت هذه الشهادة على ذاكرة الكاتب وعلى المراجع الأساسية التالية:**


١ **صايغ، يزيد. "الكفاح المسلح والبحث عن الدولة: الحركة الوطنية الفلسطينية، ١٩٤٩ ـ ١٩٩٣". بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٢.**

٢ **عبد الرحمن، أحمد. "عشت في زمن عرفات". رام الله: مؤسسة ياسر عرفات، ٢٠١٣.**

٣ **عز الدين، مازن (اللواء). "الطريق إلى طرابلس". رام الله: الهيئة الوطنية للمتقاعدين العسكريين، ٢٠١٠.**